دور الزوايا في الحركة الوطنية والثورة التحريرية

أ/ د. محمد مجاود

جامعة جيلالي اليابس

Résumé:

Les zaouias en tant qu'institutions religieuses ont fait l'objet de nombreuses publications de la part des conquérants militaires, ancrées dans la société algérienne, elles ont joué un rôle moteur dans le mouvement de résistance contre l'occupation française durant le 19eme siècle. Au début du siècle précédent s'achèvent les grands soulèvements populaires dirigés par des chefs religieux. Durant la période d'entre deux guerres mondiales, ces mêmes institutions se sont éclipsées pour laisser le soin aux associations et partis politiques nationalistes naissants d'occuper l'espace politique, social, voir même culturel pour faire face aux entreprises colonialistes dévastatrices de l'identité nationale. Cette étude tende à mieux appréhender l'essor et le déclin du mouvement confrérique durant l'ère coloniale.

يتفق علماء الأنتروبولوجيا على وجود خصوصيات في الجوانب الاجتماعية والثقافية والفكرية والأخلاقية تميز المجتمعات عن بعضها البعض، إن ما يميز المجتمع الجزائري من خصوصيات تلك المتعلقة بالمؤسسات الدينية وعلى رأسها الزوايا والطرق الدينية التي كانت تعتبر المركز الذي تدور حوله كل النشاطات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية على مدار قرون من الزمن.

انطلقا من هذا الأساس، يحق لنا أن نستوجب التاريخ وأن نتساءل عن دور الزوايا في المقاومة الشعبية والثورة الجزائرية، كما يحق لنا أن نتساءل عن مسيرة رجالها ومواقفهم إزاء القضايا الوطنية المختلفة نظرا لما يتمتعون به من مقدرة واحترام وما يحضون به من تقدير كبير في الذاكرة الجماعية.

إن المتأمل في تاريخ الجزائر المعاصر بعامة وتاريخ الحركة الوطنية بخاصة يلاحظ بأن جل البحوث غلب عليها الاهتمام بالجانب السياسي والعسكري، في حين ظلت المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية والمهنية في حاجة إلى مزيد من البحث والتنقيب. كما أن الدراسات التي تناولت موضوع الزوايا والطرق الدينية قد ركزت في أغلبيتها على دورها في صد العدو الاستعماري للجزائر خلال القرن 19م من خلال تأطير المقاومة الشعبية، بدءا بمقاومة الأمير عبد القادر (1832- 1847

وصولا إلى ثورة الشيخ بوعمامة 1881- 1883). "ألم تكن الزوايا مصدرا للعلم والهداية وحامية الدين والصلاح، ومنبع اليقظة والنهضة ... منبث للثورات عديدة في الجزائر على الاستعمار."(محمد علي دبوز.1975: 19)

إن المؤسسات الدينية تأخذ أهميتها من تعدد وتنوع وظائفها المختلفة ذات الأبعاد الوطنية والعالمية. وما تزال هذه المؤسسات لم يخلع اللثام عنها، ومازالت تتطلب من الباحثين المزيد من الإضاءة والتحليل لإعطائها حقها وتناولها من مختلف الجوانب العلمية والفكرية. تعتمد مقاربتنا للموضوع، من هذا المنظور، على التحليل السسيولوجي لإبراز مكانة الزوايا اجتماعيا ودورها الثقافي والفكري في المجتمع الجزائري طوال فترة تواجد الاستعمار الفرنسي واستعراض التحولات التي عرفتها هذه المؤسسات الدينية من خلال تعاملها مع النظام الاستعماري وعلاقتها بالحركة الوطنية والتوقف عند مظاهر تقهقرها سياسيا واجتماعيا منذ مطلع القرن العشرين.

وتنقسم هذه الدراسة من الناحية الزمنية إلى ثلاث مراحل.

1- مرحلة المقاومة والدفاع عن الأرض.
2- مرحلة الضعف وتقلص النفوذ.
3- مرحلة الثورة التحريرية.

1- مرحلة المقاومة.

لقد اهتمت أغلبية الدراسات الأنتروبولوجية الاستعمارية التي كانت تهدف إلى معرفة الأخر بموضوع الزوايا والطرق الصوفية مشيرة إلى دورها الرائد في مقاومة الاحتلال باعتبارها قوة مجاهدة ومدافعة عن الأرض ومعقل للمقاومة الشعبية في بلادنا ضد الغزو الاستعمار الفرنسي، بالرغم من أنها لم تكن مؤهلة لذلك. حملت المؤسسات الدينية على عاتقها مسؤولية المقاومة بعدما تفككت قوة النظام العثماني التي انهارت بسرعة كبيرة أمام زحف الجيش الفرنسي المحتل. كما أن جل البحوث التي أنجزها بعض المختصين.

المكلفين من قبل السلطة الفرنسية حول دور الزوايا ومكانتها في المجتمع الجزائري تبرز أهميتها بوصفها قوة تقليدية منسجمة تتمتع بسلطة دينية مؤثرة على أتباعها وموردها، وتكشف أمر خطورتها على المصالح الاستعمارية نظرا لصلتها

الوثيقة بمقاومة السكان الجزائريين. إن هذا الاهتمام كان موجها لمعرفة الواقع الإسلامي في الجزائر ودور الزوايا فيه على الاعتبار أن أغلب زعماء المقاومة الوطنية ينتمون إلى هذه المؤسسات الدينية لما لها من حضور قوي في نفوس الجزائريين. فكان المحتل الفرنسي يرى فيها مراكز متعددة الوظائف موجهة لتعبئة المسلمين من أجل مقاومة الغزو الاستعماري ورده والدفاع عن أراضيهم. إن الغرض من فهم هذه الظاهرة حسب رأيهم يكمن في السيطرة عليها ومضايقتها للحد من نشاطها.

تبين الدراسات ومختلف الوثائق والأبحاث التاريخية التي تناولت الإسلام والطرق الدينية في المغرب العربي بأن الدين المحمدي كان يمثل العنصر الأساسي للاتحاد والتماسك الاجتماعيين، والمحرك لكل الانتفاضات الشعبية ضد السلطات المركزية، فتميزت هذه المؤسسات الدينية بالاستقلال الذاتي وفي بعض الأحيان موازية للسلطة المركزية الرسمية، تنافس في بعض الأحيان سيادتها، وتتمتع بنوع من الاستقلال النسبي يجعلها تتحرك خارج نطاق نفوذها لتملأ الفراغ والفضاءات التي تغيب فيها سلطة الدولة المركزية، ولقد ورثت هذا الانفصال من الحقبة التاريخية للحكم العثماني في الجزائر بحيث كانت تتحالف وتتعارض معه طبقا لما تمليه مصالحها الحيوية. إن الثورات التي قادها شيوخ الزوايا وزعماء الطرق الدينية ضد تجاوزات الأتراك باعتبارهم حماة القبائل المحلية لدليل قاطع على الرصيد الاجتماعي الذي كان يتمتعون به. إن واقع الطرق الدينية وأهميتها في المجتمع الجزائري يبين ارتباطها بالبيئة الاجتماعية القبلية التي تتواجد فيها، فكلما توغلنا في داخل المجتمع الريفي والمناطق القبلية نسجل انتشار قوتها. وبفضل مركزها الاجتماعي المرموق، اضطلعت المؤسسات الدينية بمهام جليلة ساهمت في تلبية حاجات اجتماعية وثقافية ودينية وتربوية تصب كلها في الحفاظ على الذات الجزائرية وتحصينها.

يؤكد مارسيل سيميان من الأمر قائلا: "بأن تلك المؤسسات الدينية غالبا ما تتحول إلى معقل الثورة ضد الأجنبي وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام (Marcel SIMIAN. 1910: 41). وبالتالي فإن " الزاوية ـ على حد قوله ـ لم تعد فقط مكانا للتعليم القرآن الكريم...، بل أصبحت منبثا للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات والثورات". (Marcel SIMIAN. 1910: 41). أما شارل

بلوسرال وصف إتباع الطرق ب" الميليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة...، مستعدة للانطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها.(Ch. BROSSELARD. 1989:19) إن هذه الأحكام الصادرة من الكتاب الفرنسيين تبين بأن الطرق الدينية والزوايا كانت تمثل القوة الوحيدة القادرة على تكوين جبهة الصمود والتصدي وتحريك آليات الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، مما جعل الإدارة الفرنسية طيلة القرن الـ19م وبداية القرن الـ20 تخشى الطرق الدينية، وترى في كل تحرك جهادا مقدسا موجها أساسا ضد الاستعمار ومصدر قلق مستمر ضد وجوده. يعتبر الجهاد من المقتضيات الدينية الأساسية تساعد على تعبئة وتجنيد الجزائريين، خاصة عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الكيان الوجودي للإنسان الجزائري المسلم وحماية ممتلكاته ضد غزاة أجانب يدينون بغير الإسلام. لقد استمر صمود الجزائريين طوال فترة الغزو متمثلا في مقاومات شعبية تواصلت طيلة القرن التاسع عشر، قادها رجال الدين وطبقة الأعيان للدفاع عن الأرض والعرض، غير أن هذه المقاومة المسلحة باءت بالفشل لأسباب موضوعية تكمن أساسا في عدم توازن في القوى والإمدادات العسكرية من جهة، وتشتت العمل الجهاد جغرافيا وزمنيا من جهة أخرى.

ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى نظام تكوين المجتمع الجزائري المبني على أسس النمط القبلي، بحيث يجعل من درجة الانتماء الفرد إلى القبيلة أقوى وأعظم من درجة الانتماء إلى الوطن في بعده السياسي والإقليمي. إن إشكالية التناقض بين فكرة القبيلة ومسألة الوطنية أثارت اهتمام الدراسات الأنتروبولوجية التي توجهت إلى معرفة ووصف مكونات المجتمعات العربية الإسلامية، أين يأخذ التكوين القبلي واقعا اجتماعيا ملموسا.(نصر الدين سعيدوني. 2000: 85 .86) "إن فكرة الجنسية ومفهوم الوطنية، يقول كولونال نيوكس، لم تتبلور بعد بشكل واعي لدى الفرد الجزائري الذي لم يدرك بشكل واضح مجموعة المصالح التي تتجاوز وتفوق إطار القبيلة، وهذا ما يفسر السهولة النسبية لاحتلال الجزائر" (Colonel NIOX. 1980) . إن غلبة الروح القبلية السائدة في الريف الجزائري حالت دون انخراط بعض من القبائل والطرق الصوفية في مشروع كل من مقاومة الأمير عبد القادر في القطاع الوهراني وأحمد باي في الشرق الجزائري مما يبين ضعف إدراك

البعد الوطني لهذا المشروع الذي فشل في توحيد القبائل وتجنيدها ضد الاحتلال الفرنسي من جهة، وإرساء أسس بناء الدولة الجزائرية المعاصرة من جهة أخرى.

لم تعتبر الزوايا رابطات للجهاد ومكانة للصلاة والعبادة فقط، بل كانت تمثل فضاء اجتماعيا وثقافيا ودينيا تساهم في بناء الإنسان الجزائري وتكوين شخصيته في ظل القيم والمبادئ الإسلامية بالنظر لما كانت تتمتع به من رصيد مذهبي ديني مؤثر وباعتبارها مركزا للحركة التعليمية والدينية ومؤسسة يلجأ إليها الناس لحل نزاعاتهم ومشاكلهم. فقد أرست فعلا دعائم الذاتية الجزائرية.

على غرار المراكز العلمية والدينية الأخرى مثل المدارس والمساجد والكتاتيب القرآنية المنتشرة في القرى والمدن الجزائرية، عملت الزوايا على الحفاظ على الموروث الثقافي العربي الإسلامي (نقل ونشر وإعادة إنتاج الثقافة الدينية الإسلامية وما تحمله من قيم وأخلاق ومعاني وسلوكات اجتماعية، نشر قيم المحبة والتآخي والتسامح بين الجزائريين). وبفضلها تم انتشار الدين الإسلامي بتعليم القرآن الكريم واللغة العربية في كامل أرجاء الوطن، فاللغة تمثل العمود الفقري للحياة الثقافية وأداة التواصل الاجتماعي وتؤكد على الذات الجماعية وعلى الوعي بالانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية، كما ساهمت الزوايا في الحفاظ على مقومات السكان الجزائريين وحصنهم ضد الانحراف وجنبهم التفسخ والانحلال والاندماج في الثقافة الفرنسية، ثقافة الغالب. كما مكنت المجتمع الجزائري من المحافظة على أصالته العربية الإسلامية وهويته الوطنية طوال فترة الاحتلال، وكان لذلك أثر بالغ في استنهاض بالروح المقاومة الوطنية خلال ثورة أول نوفمبر الخالدة.

تمثل الزوايا فضاء اجتماعيا نظرا لما تقوم به من تأطير المجتمع المحلي وتوجيهه في إطار العلاقات الاجتماعية المحافظة على التراث والعادات والتقاليد المكرسة، نظرا للمكانة العالية التي تحتلها في السلم الاجتماعي ولما يتمتع به أصحابها من منزلة وسمعة طيبة واحترام وتقدير كبيرين وسلطة معنوية على السكان، فإن نداءهم للجهاد قد لقي صدى واسعا لدى الأتباع أثناء مرحلتي المقاومة والثورة التحريرية. كما كانت مقصدا لطلاب العلم وعابري السبيل واللاجئين إليها والفقراء والمساكين، نظرا لما كانت تتوفر عليه من وسائل وأطر للتعليم والتربية وللأعمال الخيرية. فمكانها مقدس لا يمكن لأي أحد تدنيسه أو

الاعتداء عليه. كما كانت مرجعا للقضاء تبرم عقود الزواج والطلاق ويصهر على المحافظة على الأحوال الشخصية.

2- مرحلة الضعف وتقلص النفوذ.

أمام التفوق العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي للعنصر الأوروبي وما أنجر عنه من اضطرابات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجتمع المحلي وتفكيكه، وأمام السياسات الاستعمارية المنتهجة من طرف السلطات الفرنسية ولما تحمله من أهداف إيديولوجية هدامة للقيم الوطنية من خلال تجهيل الشعب الجزائري والقضاء على مؤسساتها التربوية والتعليمية والدينية كالمدارس والمساجد والزوايا، قامت الإدارة الفرنسية بتحويل الكثير منها إلى مؤسسات إدارية وثكنات وكنائس وكتدراليات، كما قامت بمطاردة العلماء والفقهاء وحفاظ القرآن الكريم والمدرسين ونفيهم في داخل البلاد وخارجها بعد ما قامت بنزع أراضيهم ومصادرة أملاك الأوقاف الإسلامية التابعة للمؤسسات الدينية التي كانت توفر الإمدادات المالية اللازمة للإنفاق على المشاريع التعليمية والتربوية وعلى برامج الأنشطة الدينية المختلفة.

وأمام كل هذه المؤامرات، تمكن المجتمع الجزائري من استرجاع قواه الحية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ومن الاستفاقة الوطنية للنهوض من مرحلة غلبت عليه المعرفة والمقاومة الدفاعية عن الذات والتي تميزت بعدم التعامل مع كل ما هو فرنسي (Yonne Turin. 1983: 63-64)، تلك المواقف التي يحركها الشعور الديني إلى معرفة نقدية متفتحة على التيارات الإصلاحية وعلى العناصر الايجابية التي تحملها الثقافة الغربية وبالتالي التعامل مع قوة الواقع بالحكمة المتبصرة لتوظيفه في السياق التاريخي للنضال الشعبي الجزائري المتواصل والصمود ضد أخطار الاحتلال المتعدد الأشكال. فبدأت تبرز على مسرح الأحداث الوطنية منظمات وجمعيات جديدة استطاعت أن تتأقلم مع المتغيرات التي أفرزها الواقع الجديد مستعملة في ذلك وسائل نضالية أكثر تطورا لمواجهة مجمل التحديات الراهنة.

فبعدما كانت الزوايا مهيمنة طيلة القرن 19م وإلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى على الحياة السياسية والثقافية في الجزائر، بدأت تفقد أهميتها وقيمتها في الحياة الاجتماعية وبدأ يتراجع دورها ويتقلص نفوذها الذي كانت تتمتع به في

السابق. إن علاقتها الجدلية مع الاستعمار قد تراجع كثيرا ليفسح المجال أمام الحركات والجمعيات الوطنية الناشئة وخاصة أمام جمعية علماء المسلمين الجزائريين التي أصبحت تأخذ زمام المبادرة العملية في تعاملها مع النظام الاستعماري.

ويعود تقهقر دور الزوايا إلى أربع أسباب رئيسية نلخصها فيما يالي:

1- فقدانها الاستقلال الذاتي الذي كانت تتمتع به سابقا من خلال فرض المراقبة الشديدة عليها ومحاصرتها من طرف الإدارة الفرنسية.

2- ضعف مواردها التي كانت تسد النفقات الضرورية للقائمين على أمور التعليم والعبادة والقضاء وكذا صيانة بنايات المؤسسات وتوسيعها عند الغرض.

3- ظهور علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة ذات طابع استعماري استغلالي محل العلاقات الاجتماعية القبلية المبنية على الملكية الجماعية للأرض.

4- هجرة اليد العاملة من الريف إلى المدينة ومن الجزائر إلى الخارج.

وتتجلى مظاهر ضعف المؤسسات الدينية التقليدية في ثلاث مجالات على الأقل يمكن تلخيصها فيما يلي:

ا- المجال الاقتصادي:

تفكيك البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري وما انجر عنه في تغيير نمط الحياة (الهجرة الداخلية والخارجية، علاقات عمل جديدة مبنية على نظام الأجرة...الخ). مصادرة الأراضي الزراعية من أصحابها وتقسيم الملكية وتفكيك النظام الإنتاج العشائري القائم على قيم العمل التعاوني والتآخي والتآزر والتكافل الاجتماعي. كما قامت بمصادرة الأوقاف التابعة للمؤسسات الدينية ومراقبة نشاطها، مما ترتب عن هذه السياسة التدميرية أضرار مادية ومعنوية تمثلت أساسا في تقليص مداخل هذه المؤسسات وتفقير العديد منها مما جعل البعض منها تغلق أبوابها وأن تؤدي البعض من رجالها إلى البحث عن سند مادي لم يجدوه إلا لدى السلطة الاستعمارية التي حاولت استعمالهم لخدمة مصالحها.(أبو القاسم سعد الله. 1969: 77) ومن ثم إغراء شيوخها بالمراكز الاجتماعية والمراتب الشرفية والأدوار

القيادية، فجعلوا من بعضهم حلفاء لهم في محاربة طرق أخرى في المرحلة الأولى ثم محاولة كسر نفوذ جمعية العلماء فيما بعد.

ب ـ المجال السياسي:

بلغت الهيمنة الاستعمارية في الجزائر ذروتها غداء انتهاء الحرب العالمية الأولى، بعد فشل كل المقاومات الشعبية التي خاضها الشعب الجزائري تحت لواء الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي خلال القرن التاسع عشر، ليفتح المجال أمام أسلوب جديد من النضال الذي انطلق من المدن بدلا من الأرياف الجزائرية. يرجع الفضل في ذلك إلى بروز نخبة مثقفة تخرجت من الجامعات العربية المشهورة في ذلك الوقت وتأثرت بالأفكار الإصلاحية التي كانت لها رواجا كبيرا في بلدان المشرق الإسلامي (Merad Ali. 1967: 13-14) وجيل من الشباب المثقف المتخرج من المدارس الفرنسية وتعلم من ثقافتها طرق جديدة في التفكير وتشبع بقيمها المنادية للحرية والعدالة والمساواة. ولقد تحملت هذه النخبة المثقفة بتياراتها الإيديولوجية المختلفة على عاتقها مسؤولية قيادة النضال السياسي وتنوير الشعب الجزائري والتعبير عن تطلعاته الأساسية، مما ساهم في ظهور حركة وطنية تكونها منظمات سياسية وجمعيات ثقافية اعتمدت أساليب نضالية حديثة تمثلت في العمل التعبوي والجمعوي والصحفي والتعليمي ...الخ

أصبحت التنظيمات السياسية والاجتماعية الجديدة تنافس جديا الزوايا في كسب الأتباع، مما أدى مع مرور الوقت إلى تهميشها ليقتصر عملها على التعليم والتربية. ولكن هذه الوظيفة النبيلة بالرغم من أنها كانت تعتمد على الطرق والوسائل التقليدية (الاعتماد على التلقين الشفوي) إلا أنها ساهمت في الحفاظ على أصالة المجتمع الجزائري وعلى تراثه ودينه ولغته. إن تواجدها في الساحة الوطنية تأكد على الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري.

لقد استطاعت السياسة الفرنسية تقويض حركة الطرق الدينية من خلال محاصرة نشاطها وإضعاف أوضاعها المادية بمصادرة أوقافها ومنع جمع الأموال الوافدة من الزيارات والصدقات من جهة والعمل على احتواء شيوخ الزوايا من خلال توطيد علاقات الصداقة معهم بالاعتراف بمكانتهم المتميزة وحتى توليهم مسؤوليات إدارية ومشاركة احتفالاتهم، ومنحهم بعض الامتيازات السياسية

لكسب ودهم، وتتمثل خاصة في إعفاء أبنائهم من الخدمة العسكرية ومن دفع الجباية والضرائب وتقلدهم أوسمة شرفية مكافئة لولائهم.

لعل الصراع المفتوح بين الطرقية وجمعية العلماء، بين مشروع تجديد الوعي تحديثه وبين التقليد، "بين الجانب المتحول من المجتمع والجانب الجامد منه"(الأخضر لطيفة. 1993: 122) سهل الأمر لدوائر الإدارة الاستعمارية من توظيف بعض من رجال الزوايا والطرقية ابتداء من سنة 1932 مع تأسيس جمعية علماء السنة الجزائريين التي تجمع فيها المناهضون للحركة الإصلاحية بما فيهم الممثلين عن الزوايا والطرق الدينية، خاصة بعد عملية إقصاء أعضائها الفاعلين من مكتب الإداري لجمعية العلماء في ماي من سنة 1932.-780 :1993 .J.DESPARMET) 783)

ثم إعادة جمع شتاتهم من جديد بتأسيس جمعية رؤساء الطرق الدينية في سنة 1937م بتشجيع من رئيس إدارة الشؤون الإسلامية، التي دخلت في صراع حاد مع حركة ابن باديس من خلال وسائل الإعلام (الصحافة الخاصة والخطب في المساجد...) بهدف الحد من انتشار أفكارها الإصلاحية وتوسيع نفوذها في أوساط الشباب خاصة. إن هذا الولاء للإدارة الفرنسية قد أساء إلى سمعة الطرق الدينية مما جعلها تفقد من مصداقيتها الوطنية في الوقت الذي كانت تصر الحركة الوطنية على مقاومة كل مظاهر التمييز العنصري والاستغلال والظلم وكل أشكال الاستعمار الثقافي المتمثل في التنصير من خلال الاعتداء على المقدسات الإسلامية وإدماج الجزائر في كيان فرنسا الثقافي واللغوي وتجهيل أبنائها بغرض التشكيك في هويتهم الوطنية، وكان يراد من هذه المشاريع المعادية للعروبة والإسلام في نهاية المطاف خلق مناخ مساعد لغزو عقول الجزائريين. لقد اعتبر الجزائريون هذه المواقف السلبية لبعض الزوايا التي ارتمت في أحضان فرنسا بأنها مواقف معادية لتطلعات الشعب الجزائري التي كانت تجسده القوى الوطنية الصاعدة. وفي المقابل، فإن محاربة جمعية العلماء من طرف الإدارة الفرنسية التي كانت تعتقد بأنها تشكل خطرا على سياساتها في الجزائر جعلتها تكسب التعاطف والمساندة من طرف المسلمين الجزائريين. إن الإجراءات التعسفية التي اتخذتها فرنسا من أجل إيقاف

زحف النشاط الإصلاحي للجمعية كان لها انعكاسات سياسية غير منتظرة بحيث زاد اهتمام المسلمين الجزائريين بها.

ج- المجال الديني والثقافي:

عملت الإدارة الفرنسية في الجزائر على تقليص دور الزوايا والطرق الدينية في المجال التعليمي والثقافي مما خضعت الكثير منها إلى الجمود بشكل أكثر خطورة حتى عشعشت في أوساطها الخرافات والشعودات، إذ أصبح الجمود الفكري سائدا في الجزائر، يرجع السبب في ذلك إلى طبيعة الطرق الدينية ونظام تعليمها التقليدي وسياسة التجهيل المتبعة من طرف النظام الاستعماري إزاء الجزائريين، حيث ساد الظلام وخيم الجمود وكثرت البدع واستسلم الناس للقدر، مما أدى إلى تعطيل التفكير وشل جميع الإرادات الأخرى. ويمكن القول هنا بأن صعود الحركة الوطنية وتطورها جاء متزامنا مع تقهقر الحركة الطرقية وتراجع نفوذها.

إن الحرب المعلنة بين جمعية علماء المسلمين الجزائريين والزوايا والتي تصدرتها صفحات الصحف والجرائد والخطب الدينية في المساجد ولا سيما تلك الانتقادات الموجهة ضد الفكر والممارسات والمعتقدات الطرقية أدت بدون شك إلى زعزعت نفوذها في أوساط المجتمع الجزائري. مع ذكر بأن مثل هذه المواقف المعادية للطرق الدينية لم تكون مألوفة من قبل وكانت تعد من الجرائم الكبرى لأنها تمس بقدسية الزوايا ومؤسسها.

إن تكثف نشاط الحركة الوطنية والمطالبة بالاستقلال السياسي ساعد على تبلور وعي سياسي بدأ يستقطب الكثير من الجزائريين، إذ أصبحت التشكيلات السياسية والجمعيات الوطنية تشكل القوة المستقطبة للجماهير والمأثرة فيهم، ولا سيما وأن الكثير من أتباع الطرق الدينية قد هاجروا إلى المدن في داخل البلاد وخارجها وتأثروا بعوامل الحياة العصرية، وبذلك تفتحوا على نشاط الحركة الوطنية بجميع تياراتها. فكان من الضروري أن تجد الزوايا منافسة شديدة من قبل هذه المنظمات ولا سيما من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها عملية تجديد الدين الإسلامي بالرجوع إلى منابعه الأولى والعمل بهما (القرآن والسنة)، والدعوة إلى إسلام نقي ونظيف يقوم على تحرير الفكر من قيود التقليد

ومن الركود ومن الممارسات الدينية وأنماط سلوكية المنحرفة عن روح الإسلام والتي تتجلى في التبرك بالأولياء والتوسل إليهم وفي تقديس شيوخ الزوايا وما يترتب عنه من ولاءات وعلاقات تبعية وخضوع أعمى لإرادتهم، فهي أفعال بدعية محدثة تعمل على تكريس الوساطة في الإسلام الطرقي، وتؤدي إلى المساس بوحدانية الله التي تخالف مبادئ عقيدة التوحيد. زيادة على الثورة التعليمية والتربوية ذات البعد الوطني المناهض للوجود الاستعماري التي أحدثتها جمعية العلماء من خلال فتح المدارس الحرة وتأسيس النوادي وبناء المساجد، وقد توسع هذا النشاط على حساب دور الزوايا مما أدى إلى وضع حد للزعامة الأحادية التي ظل رجال الزوايا يمارسونها على أفراد المجتمع. إن المشروع الحضاري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حرك كل الآليات الجوهرية للدفاع عن عروبة الجزائر وعن دينها الإسلامي والتعبير عن أمال الشعب الجزائري ليعيش في كنف الحرية والاستقلال في وقت الذي كانت الأمة الجزائرية تعيش أزمة وجودية مدمرة لكيان الإنسان الجزائري المستضعف يشك في مرجعيته الوطنية والحضارية (فرحات عباس ومسألة الهوية). كل هذه العوامل مجمعة أدت إلى تقهقر الزوايا وتقليص دورها أمام صعود نجم العلماء المصلحين. فتكونت سلطة رمزية تحمل مشروعا إصلاحيا وطنيا على أنقاض السلطة الروحية التقليدية التي لم تستطيع مواكبة التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفها المجتمع الجزائري خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، فضلا عن المسلمات الفكرية التي كانت سائدة إلى حد إقفال الأذهان وحبس الإرادات، ومن بين هذه الأفكار "أعتقد ولا تنتقد"، "والذي لا شيخ له فشيخه الشيطان". فلا يجوز نقد الشيخ أو محاسبته، فقوة الشيخ الحاكمة تكمن في قدسيته، فهي فوق الحق والمنطق. ويظهر بأن الوضعية الدينية التي تكرس العلاقات التبعية لشيوخ الزوايا حاربتها جمعية العلماء لأنها تؤدي إلى تضليل الناس وحجاب العقل الذي يعتبر أخطر من الحجاب العادي، وهذا ما جعلها تتحالف مع الإدارة الفرنسية للحفاظ على مصالحها الدنيوية والتضييق الخناق على نشاط أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ذلك النشاط الذي أصبح يتعارض كلية مع نظام المعايير والقيم والمنظومة المعرفية التي أنتجتها الزوايا والطرق الدينية.

3- دور الزوايا في الثورة الجزائرية:

نظرا لعدم توفر الأرشيف الخاص بالثورة الجزائرية، لم نتمكن بعد من معرفة بدقة الدور الحقيقي الذي قامت به الزوايا في الحركة الثورية الجزائرية، فإن كل الثورات والانتفاضات الشعبية التي قام بها الشعب الجزائري منذ الاحتلال جرت تحت لواء الإسلام واستندت إلى الثقافة الإسلامية وقيمها. إن المصطلح الجهاد والمجاهد والشهيد وحب والاستشهاد قد استعملت من قبل شيوخ الزوايا وعلمائها لدفع أعضائها على القتال والدفاع عن الأرض. وتداولتها ثورة أول نوفمبر مستلهمة من التجربة التاريخية لنضال الشعب الجزائري ضد الوجود الاستعماري طوال فترة الاحتلال انطلاقا من أن للثورة الجزائرية بعدا شعبيا، ذلك البعد الذي أعطاها القوة المحركة المتواصلة، باعتبار أن القواعد الشعبية هي المحرك الرئيسي لها، فالتف الجزائريون حولها باختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والعقائدية. فنجد العدد الكبير من أعضاء الزوايا ومعلميها ومحبيها وأساتذتها وطلبتها قد شاركوا في الكفاح المسلح. ومن أهم ما يجب ذكره هنا أن الكثير من مناضل الحركة الوطنية والثورة الجزائرية قد تعلموا في مدارس الزوايا أبجديات القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو المدارس الفرنسية. ألم ينتسب مصالي الحاج إلى الطريقة الدرقاوية في شبابه، ألم يعيش آيت أحمد في بيئة دينية تقليدية، كان جده الشيخ محند الحسين المتوفى سنة 1901م مرابطا وأحد شيوخ الطريقة الرحمانية (Hocine AIT AHMED. 2000:10) ، أن لم يترعرع الرئيس السابق أحمد بنبلة في وسط ديني محافظ، فكان والده مقدم الطريقة المكحلية بمدينة مغنية. (Ahmed BENBBELLA. 1990: 14-15) إن أتباع الزوايا لم يترددوا بالالتحاق بالثورة وتدعيمها بكل الإمكانيات المتاحة لديهم. ومن المواقف المشرفة لأفراد وأسرة الهاشمي شريف شيخ الطريقة القادرية بوادي سوف ما قام به أحد الأبناء حين تبرع بقصر الباي بتونس الذي اشتراه عام 1946م إلى الثورة التحريرية حيث رفع فيه علم الجزائر ونصبت فيه أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية(عميراوي أحميدة. (بدون سنة): 68).

فخلاصة القول، لم يحق لنا مصادرة دور الزوايا والطرق الدينية وتقليصه تحت غطاء الصراع الذي كان قائما بينها وبين جمعية علماء المسلمين الجزائريين، كما لا يحق لنا تضليل التاريخ بتهميش دور مصالي الحاج في الحركة الوطنية

تحت حجة أنه كان معاديا لجبهة التحرير الوطني. فلكل مرحلة رجالها وصانع أحداثها يجب ذكر مآثرهم سواء كانت إيجابية أو سلبية. لأن الزوايا، بالرغم من كل المضايقات التي مارسها الاستعمار الفرنسي عليها وضرب الحصار علي نشاطها بهدف إضعاف مردودها التعليمي والديني، إلا أنها استمرت في أداء رسالتها الرامية إلى الحفاظ على المكونات الأساسية للشخصية الجزائرية وترسيخ الثوابت الوطنية للمجتمع الجزائري.

المراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (1969). الحركة الوطنية الجزائرية. 1900 - 1939. دار الآداب. بيروت.
- الأخضر لطيفة. (1993). الإسلام الطرقي. دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية. دار ستراسر. تونس
- أنظر إلى الدراسات والبحوث الاستعمارية التي اهتمت بالطرق الدينية والزوايا والمرابطين في الجزائر والمغرب العربي:

Bousquet(G.H),l'Islam maghrébin,introductionà l'étude générale de l'Islam, maison des livres,Alger,1956. Brosselard (CH), les khouans et la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie,Bourget,Alger,1859. Carret jacques,le maraboutisme et les confréries religieuses musulmanes d'Algérie. Degrammet(h), histoire d'Alger sous la domination turque,Leroux, Paris, 1887. Deneveu, les khouans et les ordres religieux, ed, Adolphe Jourdan,Alger, 1913. Depont et Coppolani, les confréries religieuses musulmanes, Alger, Jourdan, 1897. Dermenghem(Emile), le culte des saints, Ed du Seuil,Paris, 1965. Doutte(E), notes sur l'islaam maghrébin,les marabouts,Paris, 1900. Rinn(Louis), les marabouts et khouans, étude sur l'Islam en Algérie, Jourdan, Alger, 1881. Simian (Marcel),les confréries islamiques en Algérie,thèse de doctorat, Paris,Juin, 1910. André(P.J), contribution à l'étude des confréries religieuses musulmanes, Ed Maison des livres,Alger,1956. Gardet Louis, les hommes de l'Islam, approche des mentalités, Ed complexe, Bruxelles, 1984.

- عميراوي أحميدة. (بدون سنة). رسالة الطريقة القادرية في الجزائر. دار الهدى للطباعة والنشر. عين مليلة. الجزائر.
- محمد علي دبوز(1975). أعلام الإصلاح في الجزائر. الجزء الأول. مطبعة البعث. قسنطينة. الجزائر.
- من بين هذه الدراسات نذكر على وجه الخصوص: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الأجزاء 4،5،6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998. التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي ببلاد التونسية، 1881- 1939- منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، 1992. الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار ستراسر، تونس، 1993. فيلالي مختار فيلالي، نشأة

المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، باتنة، بدون تاريخ.

Merad Ali, Le réformisme musulman algérien de 1925-1640, essai d'histoire religieuse et sociale, Paris, la Haye, Mouton et compagnie, 1967.

ـ نصر الدين سعيدوني. (2000). الجزائر منطلقات وآفاق. دار الغرب الإسلامي. بيروت..

- Ahmed BENBBELLA. (1990). *Itinéraire*, Ed Maintenant, Alger, Oct, 1990.
- Ch. BROSSELARD. (1989). *Les kouans et la constitution des ordres religieux musulmans*. Alger. imp A.Bourget.
- Colonel NIOX. (1980). *Géographie militaire-livre VI-Algérie et Tunisie*. 2eme éd.
- Hocine AIT AHMED. (2000). *L'esprit d'indépendance,Mémoires d'un combattant*, 1942-1952, éd, Bazakh, Alger, 2002.
- J.DESPARMET. (1993). "Deux manifestes algériens". *Afrique française*. dec 1933.
- Marcel SIMIAN. (1910). *Les confréries islamiques en Algérie*. Alger. A.Jourdan. p41.
- Merad Ali. (1967). *Le réformisme musulman algérien de 1925-1640, essai d'histoire religieuse et sociale*. Paris. la Haye. Mouton et compagnie.
- Yonne Turin. (1983). *Les affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecines, religion,1830-1880*. ENAL. Alger.